مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 10، عدد رقم: 03، سبتمبر 2021، صص: 101- 116

تاريخ الاستلام (2021/05/14) تاريخ القبول (2021/09/12) تاريخ النشر (2021/09/30)

أثر الفكر الاعتزالي في توجيه الدلالة عند الزمخشري من خلال تفسيره (الكشاف)

The Effect of Mu'tazilite Thought on Directing the Significance of Al-Zamakhshari Through Ekechaf (Scouts) Interpretation

زنينة جيهاد
جامعة ابن خلدون ـ تيارت(الجزائر)، zenina.Djihad@univ-tiaret.dz

ملخص:

إن استنطاق النص والبحث عن قصديته ومراميه وإخضاع الدلالة لسلطة المعتقد أمر شغل فكر الزمخشري واستحوذ على اهتمامه، فاعتمد في تأويلاته وتقصيه للمعاني على منحى يتلاءم مع مبادئ الاعتزال وأصوله الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متخذا من الأدلة العقلية والمنطقية سبيلا لبلوغ الغرض، فإن لم يتحقق ذلك وظف الآليات اللغوية من نحو واشتقاق وتقليب لأوجه الكلام والتعابير فيفضي عليها الصبغة الاعتزالية، وأحيانا يستعين ببعض القراءات القرآنية حتى يستقيم له توجيه الآيات وفق الرؤية التي يبتغيها.. ومن هنا كان هذا الحديث عن النهج الذي اتبعه الزمخشري في تفسيره "الكشاف "، وذلك بغية الوقوف على أثر المذهب الاعتزالي في تأويل الدلالة القرآنية .

كلمات مفتاحية: الزمخشري – الفكر الاعتزالي – التأويل – المجاز – العقل .

Summary:

The text interrogating, searching for its intents/purposes and goals and subjecting the significance to the authority of the doctrine is a matter that occupied Al-Zamakhshari's thought and captured his attention. So, he relied, in his interpretations/exegeses/hermeneutics and surveying of meanings, on a trend in line with the principles of Mu'tazilite

المؤلف المرسل: زنينة جيهاد، الإيميل: zenina.Djihad@univ-tiaret.dz

and their five founding principles, viz., monotheism, justice, promise and threat, standing between the two statuses, and enjoining good and forbidding evil, using/taking rational and logical evidence as a way to achieve the goal. If this is not achieved, he employs linguistic mechanisms such as syntax, derivation, and the flipping of the aspects of speech and expressions, leading to a formula/character/ of isolationism/Mu'tazilite. Sometimes, he uses/gets help from some Qur'anic readings so that he can direct the verses according to the vision he wants/desires, hence this hadith about the approach taken by Al-Zamakhshari in his interpretation of "Al-Kachaf". This is in order to identify the impact of the Mu'tazilite doctrine on the interpretation of the Qur'anic significance.

Keywords:

Al-Zamakhshari - Mu'tazilite Thought - Interpretation - Metaphor - Reason

1. مقدمة:

تباينت النظرة التأويلية عند المعتزلة مقارنة بنظائرهم من الفرق الإسلامية؛ إذ شكلت اللغة منفذا لتلوية الدلالة وتوجيهها وفق نسقهم الفكري الاعتزالي، في محاولة لجعل اللغة منطلقا لإقرار أفكارهم وقواعدهم معتمدين في ذلك على قوانين المواضعة والأنظمة اللسانية، فإذا خالف ظاهر اللفظ ما دلت عليه مبادئ الاعتزال أحيل إلى معنى آخر يتفق ويتطابق مع ما نصت عليه، حيث عد الموروث اللساني " حليفا قويا في تدعيم تأويلات المعتزلة، ففي كل موطن أصولي تشكل دلالته عائقا لسانيا، كان المعتزلة يلوذون بمقررات اللسان التي خلدتها تجربة الجماعة الوجودية، لأن النظم اللسانية في نهاية الأمر ما هي إلا عصارة تجارب وجودية عميقة "[1].

وقام الصرح التأويلي عند المعتزلة على أسس دقيقة أسهمت في تجلية المعاني وإبانتها بغية تحقيق القصد فعدت بذلك المرجعية الأولى في استنباط الدلالة " فلقد راوح التأويل الدلالي، عند المعتزلة، بين ثلاثة أركان تتضافر في بناء الخطاب التأويلي وهي: العقل واللغة والمواضعة، إن هذه الأركان هي المنطلقات المعرفية التي ينبغي الانطلاق منها في تأسيس التأويل بيد أن الاستخدام الجماعي كان محتكما يطمئن المعتزلة إليه في تتويج خطاب التأويل، فالعرف اللساني يقطع دابر الاحتمال ويمنحه أصالة "[2].

وقد استخدموا في التأويل طرقا عدة منها: ثراء اللغة العربية وما تضمنته من ألفاظ ذات دلالات متعددة، واعتماد البلاغة ومباحثها (المجاز، الاستعارة، الكناية) كآلية تأويلية

لتخلص من ظاهر العبارات خاصة في الآيات المتشابهة، إلى جانب الاستفادة من تعدد القراءات والاستدلال بما يناسب المعتقد[3].

وقد اتبع الزمخشري منهج سابقيه من المعتزلة في جعل اللغة وسيلة لخدمة مذهبهم وخاصة في الآيات المتعلقة بالذات والصفات الإلهية، فمذهبهم فيها التأويل دفعا للتجسيم أو التشبيه الذي يتهمون غيرهم من الفرق به؛ فقد " ذهب مفسرو المعتزلة إلى حمل النص والعبارة القرآنية على منحى تأويلي يتلاءم مع مبادئهم، ووجهات نظرهم فإخضاع عبارات القرآن لآرائهم التي يقولون بها، وتفسيرهم لها تفسيرا يتفق مع نحلتهم وعقيدتهم شيء أساسي في تفسيرهم ..."[4].

2. التأويل العقلي:

يعد الزمخشري من أعلام المعتزلة و المتكلمين الذين يتخذون من العقل آلية للتأويل وتقصي الحقائق وتوضيح القضايا المهمة والمتصلة بالعقيدة، فقد اعتمد التفسير بالرأي "ولا شك أن مثل هذا التفسير الذي يخضع للعقيدة، يحتاج إلى مهارة كبيرة، واعتماد على العقل أكثر من الاعتماد على النقل حتى يستطيع المفسر الذي هذا حاله، أن يلوي العبارة إلى جانبه، ويصرف ما يعارضه عن معارضته له وتصادمه معه"[5].

وهذا لا ينفي استعانته بالتفسير الأثري والنقلي وخاصة في الآيات التي لا يعارض ظاهرها آراء الاعتزال، وتؤيد قواعده " فعلم الكلام يستند إلى النقل والعقل معا لأن أصول العقيدة ثابتة ثبوتا يقينيا في الشرع وعلى العقل أن يبحث لها عن الأدلة التي تؤيده في إقرارها وتجليتها على نسق عقلي يطمئن المؤمن ويرد شبه الخصم، ويرى بعضهم أنه لا فائدة من البحث عن الأدلة العقلية ما دامت النصوص الدينية قد قررت هذه العقيدة، وهذا يقتضي من المسلم الإيمان بها إيمانا قلبيا لا يداخله شك "[6].

وقد بالغ المعتزلة في توظيف الأدلة العقلية وتقديسها وجعلها الحكم الفيصل في العملية التأويلية حتى يتحقق الانسجام الدلالي مع المعتقد بتحميل الألفاظ معاني تتوافق مع الأدلة المسطرة " فإذا ورد عن الله تعالى كلام ظاهره يخالف ما دلت عليه أدلة العقول وجب صرفه عن ظاهره ـ إن كان له ظاهر ـ وحمله على ما يوافق الأدلة العقلية ويطابقها"[7].

وظهرت النزعة العقلية عند الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٖ١١٦**﴾ [الأعراف: 116] فقال "روي أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة، قيل جعلوا فيها الزئبق "[8]،

فاستبعد وجود السحر ومقدرتهم على ذلك وحصر فعلهم في خدعة بصرية توهم الناس وتبعدهم عن الحقيقة، فهو يعده ضربا من التخييل لينسجم ذلك مع أدلة العقل ومقرراته.

وأوضح ابن المنير نظرة المعتزلة للسحر فقال: " فمعتقد المعتزلة إنكار وجود السحر، والشياطين، والجن في خبط طويل لهم، ومعتقد أهل السنة إقرارها الظواهر على ما هي عليه؛ لأن العقل لا يحيل وجود ذلك، وقد ورد السمع بوقوعه فوجب الإقرار بوجوده، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء، ويستدق فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاقتدار عليه، وذلك واقع بقدرة الله تعالى عند إرشاد الساحر . هذا هو الحق والمعتقد الصدق " [9].

وأيضا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ١٤٣**﴾ [الأعراف: 143] قال " فكيف أرجف الله الجبل بطالبها وجعله دكا، وكيف أصعقهم، ولم يخل كليمه من نفيان ذلك، مبالغة على إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئا إليه وتاب من جراء تلك الكلمة على لسانه وقال: أنا أول المسلمين " [10]، فاستند الزمخشري في تأويل مدلول الآية على العقل، ورتب الدلائل لبلوغ القصد وإبانة المعاني وفق رؤية اعتزالية، مبينا أن طلب موسى عليه السلام رؤية الله سبحانه وتعالى مشروط بتمكنه من رؤية الجبل مستقرا، فلما عجز عقله عن مشاهدة الجبل وقد جعله الله دكا، وهو من مخلوقات الله أدرك استحالة طلبه رؤية الخالق، وقصور العقل الإنساني عن الإدراك فدلائل قدرة الله تعالى تجلت في خلقه .

والمنهج الكلامي عند المعتزلة قائم على " المزاوجة بين المنهج اللغوي والتدبر العقلي للآيات"[11]، وهي الطريقة التي اتبعها الزمخشري في تخريجاته الدلالية إلى جانب اعتماده على المحكم والمتشابه؛ إذ " ينظر إلى القرآن نظرة عامة فيجعل الآي المناصرة ظواهرها للمذهب الاعتزالي محكمة وتلك التي تخالفه متشابهة ثم يرد المتشابه إلى المحكم ليخضع تفسيرها للرأي الاعتزالي؛ وهذا النحو من التفسير هو ما يعرف بالتأويل " [12] في محاولة لحمل المتشابه على المحكم والكشف عن المعاني والرد على الخصوم، جاء ذلك مثلا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ٤١**﴾ [المائدة: 41]، فجعلها متشابهة ورد معناها إلى آيتين محكمتين في نظره وهما

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ١٠٤﴾ [النحل: 104]وقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ٨٦﴾ [آل عمران: 86]، قال: " أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم لأنهم ليسوا من أهلها لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجح " [13].

كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ١٥﴾ [البقرة: 15] اعتبرها الزمخشري آية متشابهة، وقابلها بآية محكمة حتى يستقيم له التأويل مع رأي المعتزلة في حرية الإرادة الإنسانية المندرجة تحت أصل العدل؛ إذ " اتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدار الآخرة، والرب تعالى منزه أن يضاف إليه الشر والظلم ... واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح والألطف ففي وجوبه عندهم خلاف وسموا هذا النمط عدلا" [14]، قال الزمخشري: " فإن قلت فكيف جاز أن يوليهم الله مددا في الطغيان وهو فعل الشياطين ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ٢٠٢﴾ [الأعراف: 202] قلت ... وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده " [15]. فالممارسة التأويلية خاضعة لأصول الاعتزال الخمسة، قال أبو الحسن الخياط: " وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة؛ التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلي ..."[16].

3. التأويل النحوي:

استعان الزمخشري في إدراج تلكم المبادئ وبثها في تفسيره بعدة وسائل لغوية كالنحو والإعراب والبلاغة، بهدف التخلص من حرج مخالفة المذهب حيث يقول أحمد سليمان ياقوت: " ولا يفتأ الزمخشري يترصد أي وجه من وجوه الإعراب يستند به على صحة ما يذهب إليه أهل الاعتزال، حتى إذا وجد طريقا إلى ذلك لا يدعه دون أن يلجه"[17]

وتمثيلا لذلك نجده يجعل من النحو آلية في خدمة أصلي العدل والتوحيد عندهم في تفسيره لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ١٨﴾ [آل عمران: 18]، فقد" جعل محل الجملة الثانية من الإعراب ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: 19] جملة مستأنفة مؤكدة للجملة

الأولى التي تشمل التوحيد والعدل، فالإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده شيء من الدين " [18]. ولأن الآية اشتملت على أصلين من أصول الاعتزال جاء تأويله مؤكدا لانتماء المعتزلة للدين الإسلامي .

كما اعتمد الإعراب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**مِن شَرِّ مَا خَلَقَ٢**﴾ [الفلق: 2] ولينفي القبح عن الله تعالى، وهو ما يتفق مع مبادئهم، نفى أن تكون (ما) موصولة بمعنى الذي وجعلها مصدرية " والمعنى من شر خلقه على أساس نسبة الشر إلى الخلق لا إلى الخالق " [19].

وأيضا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا٤٨**﴾ [النساء: 48] ولأن ظاهرها يخالف رأي المعتزلة المتمثل في مغفرة الله للمشرك الكافر عن طريق التوبة، وحتى يتمكن الزمخشري من توجيه الدلالة قام بتعليق الجار والمجرور (لمن يشاء) بالفعلين: يغفر ولا يغفر و" كأنه قيل: إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أن المراد بالأول (وهو عدم الغفران) من لم يتب وبالثاني (وهو الغفران) من تاب " [20].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ٧**﴾ [آل عمران: 07]، جعل الزمخشري الواو حرف عطف فقال: " لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، وتصبح الجملة الفعلية (يقولون) حالا من الراسخين" [21]. ليؤكد على دور العقل في الاستدلال والمعرفة وتأويل المتشابه .

4- التأويل البلاغي:

اعتمد الزمخشري التأويل المجازي بغية تحميل التركيب دلالات فرعية تتناسب مع التنزيه المنصوص عليه، ويؤكد ذلك وليد قصاب بقوله: " إنما كان الدافع إليه خدمة أغراضهم الاعتزالية، والدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم، وحتى يستقيم لهم توجيه الآيات والنصوص التي تخالف هذه العقائد " [22].

ووظف الزمخشري البلاغة كسلاح لخدمة المعتقد ولاسيما في الآيات المتعلقة بمقام الألوهية والأسماء والصفات، فلا يحمل الألفاظ على حقيقتها بل يضمنها معاني فرعية وخاصة في باب التوحيد فهو عندهم " توحيد لله فلا شريك له، وتوحيد لله وصفاته فليست متعددة بحال، وتنزيه له عن الجسمية وصفات الحوادث" [23].

ولشدة حرصهم على ذلك عرفوا بأهل العدل والتوحيد، و" يعنون بالتوحيد الوحدة المطلقة والتنزيه الكامل لله ولذلك سموا بأهل التوحيد لمبالغتهم في تصويره، ولعل الذي حملهم على هذه المبالغة هو ما هالهم من نزعة الشيعة الرافضة الذين تأثروا بالمذاهب الفارسية " [24].

وقد التمس الزمخشري تخريجات بلاغية في تفسيره للآيات القرآنية بهدف تحقيق التنزيه المطلق والابتعاد عن التجسيم ومثال ذلك تفسيره لقوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ**﴾[ق: 16] فحمل معنى الآية على المجاز وقال: "القرب هنا مجاز والمراد قرب علمه منه وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه من خفياته فكأن ذاته قريبة منه"[25]

وفي تفسيره قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ١٠٣**﴾ [البقرة: 103]، ولتنزيه الله عن التمني، قال: " يجوز أن يكون قوله (ولو أنهم آمنوا) تمنيا لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له، كأنه قيل: وليتهم آمنوا " [26].

كما وجه دلالة بعض الآيات عن ظاهر معناها إلى التمثيل والتخييل ففسر قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ١٨٦**﴾ [البقرة: 185] فقال " فإني قريب: تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجاحه حاجة من سأله، بحال من قرب مكانه فإذا دعا أسرعت تلبيته " [27].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا٢٢**﴾ [الفجر: 24] قال الزمخشري "تمثيل لظهور آيات اقتداره، وتبين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم " [28].

وأيضا في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ١٧٢**﴾ [الأعراف: 172]، فقد ضمن الزمخشري الآية دلالة التمثيل والتخييل لتنسجم مع أصل التوحيد فقال: " ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلا وإشهادهم على أنفسهم، وقوله: ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ** ﴾ من باب التمثيل والتخييل وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وكلام العرب ...

ومعلوم أنه لا قول ثم، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى " [29]. أما ابن المنير فيرى وجوب إقرار اللفظ على ظاهره فيقول: " إطلاق التمثيل أحسن وقد شرع به، وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود، ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة . ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على
ما هو عليه، فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالا . وأما كيفية الإخراج والمخاطبة، فالله أعلم بذلك "[30].

وقال عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا١٠﴾ [الفتح: 10] " لما قال: ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أكده تأكيدا على طريق التخييل فقال: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾ يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء: 80] والمراد: بيعة الرضوان " [31].

كما يرى المعتزلة حرية الإرادة عند الإنسان وينفون الجبرية، فالعدل عندهم هو "ما يقتضيه العقل من الحكمة أو صدور الفعل على وجه الصواب والمصلحة " [32]، ويستدلون على ذلك " بشعور الإنسان بالفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية فالأولى مرادة والثانية غير مرادة، ودليل آخر أنه لولا الحرية لبطل التكليف وانتفى الأمر والنهي والثواب والعقاب، ودليل ثالث أن بالقرآن آيات كثيرة تؤكد هذه الحرية " [33]. ووفق هذه القاعدة فسر قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ٧﴾ [البقرة: 06] قال " إن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار ؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل، أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفد فيها ولا يخلص إلى ضمائرهم من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم...وأما التمثيل، فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية " [34]، هذا في حين فسرها شرف الدين الطيبي بقوله: " تقريره أن الآية جارية مجرى السبب الموجب لكون الهدى لا

ينفع فيهم، فإن الله تعالى لما أظهر تصميمهم على الكفر بقوله:﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: 6] اتجه لسائل أن يقول: ما بالهم كذلك ؟ فأوقع قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ إلى نهايته جوابا منطويا على بيان الموجب، وقد بولغ في المعنى حيث جعل الختم على القلوب ليمنع من الفكر في الدلائل المعقولة الصرفة وعلى السمع لئلا تنفذ في القلوب بسبب الدلائل المسموعة، وجعل على البصر الغشاوة لئلا تصل إليه الدلائل المبصرة ليستدلوا بها على وجود منشئها فسد الطريق عليهم من كل وجه " [35].

ويرى جابر عصفور أن المعتزلة اعتمدوا في التأويل على " أساس لغوي ثابت فهم يحملون العبارات الدالة على التشبيه والتي لا يليق ظاهرها بمقام الألوهية، على تأويلات أبعد ما تكون عن الإيهام بالتشبيه، مع تدعيم ذلك بالأدلة اللغوية المستمدة من الشعر القديم، أو لغة العرب القدماء " [36].

5. التأويل اللغوي:

سعى الزمخشري للتوفيق بين معاني النص القرآني المخالفة في ظاهرها للمبادئ التي تبناها المعتزلة وذلك بتحويل الألفاظ عن دلالتها الظاهرية إلى دلالات لغوية أخرى تتضمنها مستفيدا من ثراء اللغة العربية وتعدد أوجهها، ويتجلى ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ٢٣﴾ [القيامة: 22-23] حيث نظر إليها بنظرة تخالف رأي أهل السنة فقال: " فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أن فلان ناظر ما يصنع بي تريد معنى التوقع والرجاء " [37]. فأنكر الرؤية المادية وجعلها بمعنى الرجاء والتوقع ! أما فخر الدين الرازي فقد حمل معنى الآية على الحقيقة وأقر برؤية الله عز وجل فقال: " لا يمكن حمل النظر على الانتظار، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة في الدنيا، فلابد وأن يحصل في الآخرة شيء أزيد منه حتى يحسن ذكره في معرض الترغيب في الآخرة، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول، لأن ذلك معلوم بالعقل فبطل ما ذكروه من التأويل " [38].

ونقل شرف الدين الطيبي رواية السلمي عن أبي سليمان الداراني قوله: " لو لم يكن لأهل المعرفة سرور، إلا قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ٢٣﴾ لاكتفوا به وأي سرور أتم من وصول المحب إلى حبيبه، والعارف إلى معروفه " [39].

وعن قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ٦٧﴾ [الزمر: 67] قال الزمخشري:

"والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوفيق على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز " [40].

وعن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ٥﴾ [طه: 5] قال: " لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر " [41].

وفي قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ٩﴾ [البقرة: 9] قال " فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح؛ لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع ... قلت فيه وجوه أحدها: أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون، صورة صنع الخادعين، وصورة صنع الله معهم حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم والثاني: ... ظنهم أن الله ممن يصح خداعه؛ لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقا لم يكن عارفا بالله ولا صفاته ولا أن لذاته تعلقا بكل معلوم"[42]

ولتنزيه الله تعالى عن فعل القبيح والظلم الذي يؤمن به المعتزلة فسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الأنعام: 25] فقال إن " وجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله (إنا جعلنا) للدلالة على أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه " [43]. وحمل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: 30] على التعجب ليتحقق التنزيه فقال " أتجعل فيها: تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ... حيث اسكنوا الأرض فأفسدوا فيها " [44]. وأكد ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ٨٨﴾ [البقرة: 87] قال "رد بأن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق بأن الله لعنهم بسبب كفرهم فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألطاف التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين " [45].

ولأن المعتزلة يؤمنون بنظرية الصلاح والأصلح وهي رعاية الله لمصالح عباده وابتغاء الخير لهم والمنفعة فحكمته وعدالته تقتضي أن تكون أفعاله كلها حسنة والباعث إليها غاية معللة [46]، فسر أبو علي الجبائي المعتزلي قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا٣١**﴾ [الفرقان: 31] بقوله: " المراد من الجعل التبيين فإنه تعالى لما بين أنهم أعداؤه جاز أن يقول: جعلنا أعداءه، كما إذا بين الرجل أن فلان لص يقال جعله لصا " [47]، في حين فسرها الزمخشري بقوله: " ثم أقبل عليه مسليا ومواسيا وواعدا النصرة عليهم، فقال: (وكذلك) كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه، وكفاك بي هاديا إلى طريق قهرهم والانتصار منهم، وناصرا لك عليهم"[48]

6. خاتمة:

كانت هذه أمثلة ونماذج قرآنية أولها الزمخشري تأويلا يخدم مذهبه الاعتزالي تجعلنا نخلص إلى:

- أنه مفسر ذو براعة وتمكن جعل من العقل آلية للتفسير واستنباط الدلالات والتنقيب عنها .

قام التأويل الدلالي عند المعتزلة على ثلاثة أركان - كانت محتكما في تجلية المعاني: العقل واللغة والمواضعة .

- بالغ المعتزلة في توظيف الأدلة العقلية وجعلوها مصدرا للإدراك والكشف عن المعارف الدينية واستبعدوا الحقائق المتعلقة بالجن والسحر .

- اعتمد الزمخشري التفسير بالرأي حتى يصرف الدلالة التي تعارض معتقده، أما الآيات التي يتفق ظاهرها مع مبادئ الاعتزال فقد أخذ بالتفسير الأثري .

- زاوج بين المنهج اللغوي و التدبر العقلي في تخريجاته الدلالية تأييدا لأصول مذهبه .

- صنف الآيات القرآنية إلى آيات محكمة ومتشابهة، المحكمة ما وافق ظاهرها أراء المعتزلة والمتشابهة ما خالفها ثم يرد المتشابه إلى المحكم ليخضع الدلالة .

- وظف الدلالة اللغوية والنحوية لتخلص من حرج مخالفة المذهب الاعتزالي، وجعل من البلاغة وسيلة لتوجيه الآيات التي تخالف معتقدهم وخاصة المتعلقة بتنزيه الذات الإلهية .

مراجع البحث وإحالاته:

1 استراتجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، هيثم سرحان، نادي تراث الإمارات، أبو ظبي، ط1، 2012، ص:20

المصدر نفسه، ص: 261

3 ينظر: في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، أحمد محمود صبحي، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1985، ص: 126

4 البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رابح دوب، دار الفجر، لقاهرة، ط 2، 1999، ص:196.

التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 2000، ج 1، ص: 265 5

6 مباحث في علم الكلام والفلسفة، علي الشابي، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط1، 2002، ص: 15-16

7 أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، الشريف المرتضى علي بن الحسين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1954، ج2، ص: 300

8 تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تعليق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 2009، ج9، ص: 378

9 كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، هامش الكشاف، ناصر الدين ابن منير المالكي، تح: خليل مأمون شيحا، ج9، ص: 378

10 الكشاف: ج9/ 386

11 مفهوم العدل في تفسير المعتزلة للقرآن الكريم، محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، (د، ت)، 1983، ص: 89

12 منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، بيروت، ط2، (د، ت)، ص: 107

13 الكشاف: ج 290/6

14الملل والنحل، أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، تح: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الاتحاد العربي، القاهرة، (د، ط)، 1968، ج 1، ص: 45

15 الكشاف: ج 1/ 49

16 الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط، تح: نيبرج، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د، ط)، 1925، ص: 126-127

17 ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، (د، ط)، 1994، ص: 192

18 الكشاف: ج3/ 164

19 المصدر نفسه، ج 30/ 1229

20 المصدر نفسه، ج 5/ 240

21 المصدر نفسه، ج3/ 161-162

22 التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، وليد قصاب، دار الثقافة، الدوحة، (د، ط)، (د، ت)، ص: 347

23 ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، (د، ت)، ج 3، ص: 44

24 المعتزلة تكوين العقل العربي أعلام وأفكار، محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2002، ص: 24

25 الكشاف: ج 1044/26

26 المصدر نفسه، ج1/ 90

27 المصدر نفسه، ج2، ص: 113

28 المصدر نفسه، ج 30/ 1202

29 الكشاف: ج9 / 395

30 كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ج395/9

31 المصدر السابق: ج26 / 1025

32 الملل والنحل: ج1 /42

33 الزمخشري، أحمد محمد الحوفي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1966، ص: 149

34 الكشاف: ج 1 / 41

35 فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الحسين الطيبي، تح: يوسف عبد الله الجوارنة، وحدة البحوث والدراسات، الإمارات العربية، ط 1، 2013، ج2/ 135

36 الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1992، ص: 126

37 الكشاف: ج 29 / 1162

38 تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير)، فخر الدين محمد الرازي، دار الفكر، لبنان، ط 1، 1981، ج 229/30

39 فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: ج 16/ 171

40 الكشاف: ج 24/ 947

41 المصدر نفسه، ج 16 / 651

42 الكشاف: ج 1 / 45

43 المصدر نفسه، ج 7 / 323

44 المصدر نفسه، ج 1 / 70

45 الكشاف: ج1 / 86- 87

46 ينظر: الزمخشري، أحمد محمد الحوفي، ص: 140

47 تفسير الفخر الرازي: ج 24/ 77

48 الكشاف: ج18 / 745

قائمة مراجع البحث وإحالاته:

- المصحف الشريف: برواية حفص عن عاصم .

1- أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، الشريف المرتضى: علي بن الحسين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، سنة: 1954.

2- البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رابح دوب، دار الفجر، القاهرة، ط2، سنة: 1999.

3- التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، وليد قصاب، دار الثقافة، الدوحة، (د، ط)، (د، ت) .

4- تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير)، الرازي: محمد فخر الدين، دار الفكر، لبنان، ط1، سنة: 1981.

5- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري: أبو قاسم جار الله محمود بن عمر، تعليق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط3، سنة: 2009 .

6- التفسير والمفسرون، الذهبي: محمد حسين، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، سنة: 2000 .

7- الزمخشري، أحمد محمد الحوفي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، سنة: 1966 .

8- استراتجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، هيثم سرحان، نادي تراث الإمارات، أبو ظبي، ط1، سنة: 2012.

9- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، سنة: 1992 .

10- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، (د، ت) .

11- ظاهرة الإعراب في النحو العربي و تطبيقها في القرآن الكريم، أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، (د، ط)، سنة: 1994.

12- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، الطيبي: شرف الدين الحسين، تح: يوسف عبد الله الجورانة، وحدة البحوث والدراسات، الإمارات العربية، ط1، سنة: 2013 .

13- في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، أحمد محمود صبحي، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، سنة: 1985 .

14- كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، هامش الكشاف، ابن المنير: ناصر الدين، تعليق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط3، سنة: 2009 .

15- مباحث في علم الكلام والفلسفة، علي الشابي، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط1، سنة: 2002 .

16- المعتزلة تكوين العقل العربي أعلام وأفكار، محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، سنة: 2002.

17- مفهوم العدل في تفسير المعتزلة للقرآن الكريم، محمود كمال أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، (د، ط)، سنة: 1983 .

18- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، مصر، ط 2، (د، ت) .

19- الملل والنحل، الشهرستاني: أبو الفتح محمد عبد الكريم، تح: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الاتحاد العربي، القاهرة، (د، ت)، سنة: 1968 .

20- الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، الخياط: أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد، تح: نيبرج، دار الكتب المصرية، (د، ط)، سنة: 1925 .